بـــلال

دَلَفَ الرجلُ إلى أميَّة بن خلف، وهو في مجلسه من نادِيه في قُرَيش وقال له: أوَ مَا بلغك الخبر؟ قال أمية: وما كان؟ قال: لقد شهدتُ عبدك بلالاً يختلفُ[1] إلى محمد في قائلة[2] النهار أحياناً، وفي ظلام الليل آناً، وهو خائف في مِشيته؛ يبدو عليه الحذَر في لَفْتَتِه. ولقد يخيَّل إليَّ فيما توسمتُه في وَجْهه، واستقرأته من حالته أنه دخلَ فيما يَدْعُو إليه محمد، وانخرط فيما تَهَاوَى فيه كثير من قومنا في هذا الدِّين.

قال أميَّة: أحقّاً ما تقول؟ وعلى بيِّنة أنتَ مما تروي؟ قال الرجل: نعم، ولهذا نَفَضْتُ عليك الخبر، وأفْضَيتُ إليك بما أرَى، لِتُهَذِّبَ هذا العبد، وتقضيَ على هذه الفتنة التي توشكُ أنْ يَنْدَلعَ لهيبها بين الموالي، وقد أخذتْ سبيلها بين الأشراف.

انْفَتلَ أميةُ من مجلسه إلى داره، وإنَّ قلبه ليحترق من الغيظ، وهو يعدُّ لبلال الشرَّ والمكروه.

وجاءَهُ بلالٌ، ووقف بين يديه يضطرب ويَرْتَعِدُ، أن رأى الشرَّ يلمعُ في عينيه، ونارَ الغيظ تكاد تخرج أُوَارَها من بين جنبيه. قال له أميَّة: ما هذا الذي بلغني عنك، وتَرَامى إليَّ من أمرك؟! أحقٌّ ما يقال إنك تختلفُ إلى محمد تحت رواق[3] من الظلام، أو سِتَار من قائلة النهار؟ وإنك آمنتَ بدعوتِه، واستجبتَ إلى أوهامه وضلالهُ، كافراً باللاَّتِ وَالعُزَّى صابئاً عن آلهةِ قُرَيش والعَرب؟

قال بلال: أما إذ وَصَل إليكَ عِلْمي، وانتهى إليك إسلامي، فإنّي لا أكتمك أني قد جئتُ محمداً فآمنتُ برسالته، وصدقته فيما يدعو إليه، ولا عَلَيّ بَعْدَ أن حدثتكَ أن يعلم الناسُ جميعاً أمري.

---

(١) يختلف إليه: يأتيه ويتردد إليه.

(٢) القائلة: الظهيرة، وقت القيلولة.

(٣) رواق الليل: مقدمه وجانبه.

قال أميةُ: أوَمَا علمتَ أنّكَ مملوكٌ في يميني، وعَبْدٌ رقيقٌ كبقية متاعي؟ وأني من من يوم أنْ اشتريتُكَ إنما اشتريتُ جسمَكَ وعقْلَك، وتملكت روُحك وجَوَارحك، وأنه لا قدرة لعقلك أنْ يعتقدَ ما يشاء، ولا لتفكيرك أن يذهبَ أنَّى شاء؟ فما هذا الذي تجاوزُ به حدَّك، وتخرجُ به على دين سيِّدك؟

قال بلال: أما إني عبدك وأسيرك، وخادمك ومولاك، فهذا ما لا أُنكِره عليك، ولو أمرتني بقَطْع وَادٍ مُسْبع[1] في جَوْفِ الظلام لفعلت، أو كلّفتني حملَ الأحجار في رَمْضاء الظهيرة لما شكَوْتُ؛ أما عقلي وفكْري، وعقيدتي وإيماني، فهذا الذي لا يَقَعُ تحت سلطانك، ولا يدخل في حَوْزتك، ولا إمكانك، وما يضيرك من إيماني وإسلامي؟ وما يَهُمُّكَ في أن أملك عقلي وتفكيري، ما دمتُ قائماً على خدمتك، حافظاً لعهدك؟

قال أمية ـ وقد ثَارَ ثائرُهُ وهاج هائجُهُ: لستَ أيها العبد إلاَّ مملوكاً لي من مَفْرِق رأسك إلى أخمصِ[2] قدمك، وفيما بين ذلك من عقلك وتفكيرك، حتى خَلجات قلبك، وخطرات نفسك، وهمسات لسانك، لا تملكُ من كل ذلك شيئاً، وسأذيقك من ألوان العذاب، وضُرُوب النَّكالِ، حتى أستَلَّ ما تعتقدُهُ من قلبك، وأمَزِّقَ نسيجَ ما تَتَوَهَّم بين ألفَافِ صدرك.

ثم هجمَ عليهِ مُغِيظاً مُهتاجاً، عزيزاً قادراً، غليظ الكبِدِ، شديدَ الوطأة؛ وشدّ وَثاقه، وقيَّد يديه ورِجْليه، ودفعَ به إلى الصِّبيان في بَطْحَاءِ مكة، يتَلعَّبُون به، ويقذفونه كالكرة، ويدفعونَهُ كسَقَطِ المتاع.

وعاد أميةُ في أعقاب يومه إلى بلال يشهد مَصْرَع الإيمان في قلبه، ويرى مبلغَ العذابِ من نفسه وجسمه، ولكن ماذا عسى أن يبلغَ العذابُ من نفس أسلمت لله، وَوَجّهت وَجْهَهَا لله؟ وما القيدُ والأغلال، وما الكَيد والنَّكال بجانب حلاوَةِ الإيمان التي ذاقها، ونعمة الإسلام الذي ينعمُ قلبُه بها؟

قال له: كيف وَجَدْت العذابَ يا بلال؟ أخيرٌ لك ما أنتَ فيه من هَم وَبَلاَء، أم عودة إلى اللاّت والعُزّى، وكُفْرٌ بما جاء به محمدٌ، وما يزعمهُ من دين؟

---

(١) المسبع: الذي يكثر فيه السباع. والمسبعة: الأرض الكثيرة السباع.

(٢) الأخمص: باطن القدم الذي يتجافى عن الأرض.

فنظر إليه نظرة جمع فيها كل ما تَطْوِيه نفسه من احتمالِ العذاب، واستعدادٍ للبلاء، واحتقار لما يُوقِعُه به أمية مِنْ تعذيب وإيذاء؛ وكأنه يقول له: قد تملِكُ السوطَ تنَالُ به جسمي، والحبلَ تَغُلُّ به عُنُقي وَرِجْلي، بل لك السهمُ الذي تستطيعُ أن تُسَدِّده إلى نحري[١]، والسيفُ تضربُ به عنقي؛ أما أن تَمْلك عقلي وقلبي، وتحتكم في ديني وعقيدتي، فهذا الذي لا يستطيعُ أن ينالَـهُ بطشك، والذِّرْوَة التي لا تستطيعُ أن ترتقيها بقوتك وسلطانك.

ثم ما زاد بعدَ نَظْرته على أن قال: «أحَدٌ، أحَد»؛ إعلاناً لسيده بأنه سيظلُّ على توحيده وإيمانه، وعقيدته وإذْعانِه، وإن ترادَفت عليه ضروبُ المِحنِ، واستقبلته صنُوفُ البلاء.

وطلعت الشمس في اليوم الثاني قويّـةً ملتهبة، وانبسطت أشِعَّـتَها على الصحراء فاستوقَـدَ أديمُها[٢]، واضطرم بالنار إهابُهَا، وجاء أمية ببلالٍ فأضجعهُ على الرَّمْضَاء، وأتى بصخرة عاتيةٍ فَـأرَاحَهَا عَلى صدرِه، وظل بلال بين رَمضَاء ملتهبة، وصخرة ثقيلة قاسية، وفيما بين ذلك تقذِفُهُ الشمس بسهامها، والرياحُ تُـزْجِي[٣] إليهِ غُـبَارَها.

ولكن كل هذا وبلالٌ لم يُـغَـيِّر حَرْفاً من الكلمة التي أصبحت شِعارَهُ وَعَـقِيدته، وعُـنْوَانَ إسلامه وإيمانه: «أحَدٌ، أحَد»...

هو الله الذي أعبده وأتوجّه إليه، وهو الذي أقصِدُه وأعتمدُ عليه، لا يُـضِيرني هذا العذاب، ولا يُزَحْزحني عن الإيمان به هذا العقاب: «أحدٌ، أحد»...

هو الله وَحْده الذي استدفعُ به البلوَى، وَألتجىءُ إليه في المحنة الكُبرى، وإنْ ضاقت منافذ الأمل، وَرَثّت حِبَالُ الرّجَاءِ: «أحدٌ، أحد»...

هو الله وَحْدهُ الذي بعث محمداً رسولاً، ومُـرْشِداً أميناً، ومن نُـعْماهُ عليَّ أنْ كُـنْتُ من تَابعيه، ومِنْ مُحِبِّيه ومُرِيديه، وكفاءً لهذه النُّـعْمَى سأصْبِرُ على هٰذَا البلاء، وأصمد لذلك القَـضَاء.

---

(١) النحر: أعلى الصدر.

(٢) أديم كل شيء: ظاهره، أديم الصحراء: ظاهرها.

(٣) زجا الشيء زجواً: ساقه ودفعه.

ثم ما زالت الأيامُ تتوالى وتـتّابَعُ، وألوانُ العذاب على بلال تترادَفُ، وأميَّة ما يزداد إلا غيظاً وَحِقداً، وما يلقى من بلال إلا صبراً واحتساباً، حتى كان أبو بكر يمشي يوماً في بعض شِعَابِ مكة؛ فإذا بلال يئنُّ من آلامه، ويتلوّى في محنته، وأميةُ واقفٌ أمامه في كِبْرِهِ وجهْله، وظُلمه وعَسْفِه[١]، ينظرُ إليه وكأنه قد شَفَي مِنْ غيظه أو أطفأ وَقْـدَةً من الحقد بين جنبيه! فأدركت أبا بكر الرحمةُ وتحرَّكَت في نفسه بناتُ العطف والشفقة، فقال لأمية: حَتّام[٢] تتركُ هذا المسكين غَرَضاً لعذابك، وهَدَفا لبلائك؟ وما حَظُّكَ من هذا الأنين تسمعه؟ ومن هذه الدموع تبعثها من مآقيها؟ أي جُرْمٍ اقترفهُ؟ وأي إثمٍ ارتكبهُ؟

قال أمية في صَلَفِه وغُـرُوره، وعجبِه وخُـيَلائه: هذا عَبْدي ومِلْكُ يميني، أعَـذِّبُـهُ كيف أشاء، وأطلقه متى أشاء! وما أوقعه في بلائه وجَرَّ عليه أسباب شقائه، إلا أنتَ وصاحبك! فإذا كنتُ مُشفقاً به، وحَدباً عليه، فدونكه اشتره، وخلصه مما هو فيه. أما ما دام هذا العبد في مِلْكي فلن أرْفَعَ عنه العذاب حتى يعود إلى اللاّت وَالعُزَّى.

وانتهزها أبو بكر فُـرْصة يخلِّص بها بلالاً من مِحْنَته، ويرفَـعُ عنه عذابَ سيده، فقال لأميَّة: قد اشتريتُه منك، وليس لك عليه الآن مِنْ سبيل، وأما أنتَ يا بلال فقد أعتقتك حِسْبَة[٣] لله وائتجاراً.

فهذا أمَـيَّةُ وهذا أبو بكر؛ هذا مؤمن وذاك كافر، وهذا بَـرٌّ وذاك فاجر، وقد سجَّل الله عاقبتهما، وفصل في أمرهما ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾[٤] وشتَّان ما بين الرجلين، ويا بُـعْد ما بين العاقبتين!

---

(١) عسف فلاناً: أخذه بالعنف والقوة وظلمه.

(٢) حَـتَّامَ: أصله حتى ما، حذفت ألف ما الاستفهامية تخفيفاً ومعناه إلى متى.

(٣) الحسبة: إدخار الأجر عند الله.

(٤) سورة: الليل، الآيات: ١٤ ـ ٢١.